الحب في ظل الحرب
المرأة اليهودية محبوبة في نماذج
من الأدب الفلسطيني

أ.د. عادل الأسطة

في أثناء الكتابة عن المرأة اليهودية محبوبة في نماذج من الأدب الفلسطيني يتساءل الباحث إن كان يجدر التوقف أمام صورة المرأة اليهودية بعامة أو الاقتصار على المحبوبة والتمييز بينها وبين الغاوية اللعوب التي تؤدي دورا، وتلك الشبقة جنسيا أيضا؟
لقد راودني هذا التساؤل بعد تتبع صورة اليهودية في نماذج من الأدب الفلسطيني، وبعد تتبع لازمة (استير) و(فرموزا) في الأدب العالمي، وملاحظة التغيرات التي طرأت على صورة اليهودية في الأدب العالمي المعاصر.

المرأة اليهودية محبوبة يعني أن الرجل العربي، فيما يخص الأدب العربي، وهنا الفلسطيني، هو الذي يسعى وراءها، فربما تكون هي تنشد هذه العلاقة، وربما تكون لا تنشدها، فإذا ما كانت تنشدها غدت محبوبة ومحبة في الوقت نفسه، وإلا فإنها محبوبة أو مرغوبة أو مشتهاة.
وما من شك في أن هذه وتلك تختلفان عن تلك التي ترسلها جماعة يهودية/ صهيونية لتوقع بالفلسطيني من أجل أن يبيع أرضه أو يعترف بانتماء فصيلي، فالأخيرة ليست بأية حال محبة، إلا إذا اعترفت للفلسطيني بالدور الذي تقوم به وعزفت في مواصلته، وقد يقع الفلسطيني في غرامها وقد لا يقع، وقد يكتشف أمرها وقد لا يكتشف، إلا إذا اعترفت، وفي حال اكتشاف أمرها فإن استمراره في إقامة علاقة معها يعتمد على مدى وعيه السياسي والوطني والإنساني، وقوته وضعفه.

في هذه الدراسة التي اعتمدت في إنجازها على دراسات سابقة أنجزتها، سآتي على صورة اليهودية المتعددة، على صورتها محبوبة، ومحبوبة ومحبة، وغاوية لعوب مرسلة من جماعتها للتجسس- وقد تمارس ما يطلب منها وقد ترفض- وشبقة جنسيا يهمها أن تروي ظمأها حين لا يرويه لها يهودي.

سأتوقف، ابتداءً، أمام لازمة الغاوية اللعوب، وأمام لازمة (استير)، ولازمة (يهودية طوليدو: فرموزا) لأنني سأقارن أحيانا بين المرأة في النص الأدبي الفلسطيني وصورة (استير) و(فرموزا) في الأدب العالمي، وسأعتمد هنا على كتابي (فرنزل): موتيفات الأدب العالمي، و(هورست.س) و(انغريد ديميرش): أفكار وموتيفات في الأدب.

الغاوية اللعوب:

في القصص القديمة، حين يتقابل البطل مع غاوية لعوب مغرية وخطيرة، فإنه يوضع في اختبار صعب، غالبا ما لا يكون قابلا للتخلص منه.

وتمتلك الغاوية غالبا علامات الأفعى، وتعيش في جزر معزولة، تعيش في الينابيع وفي عالم الجبال غير الموجودة، أو في رياض تشبه القصور، رياض فاخرة تحت الأرض.

وتظهر الغاوية اللعوب عدوانية، مصاصة دماء، ساحرة، ملاك جحيم، وتسبب للآخرين المعاناة. وهي تجذب الرجال إليها وتقودهم إلى الزواج ليتجاوزوا الأوامر الدينية للكنيسة، فهي تغويهم لتبعدهم عن الدين.

ويسبب سحرها إشكالات لضحيتها، فقد يتخلى عن وطنه وعن عائلته وعن شجاعته في الحياة. وهو يعاني في حبها ليتذوق معها سعادة لا عهد له بها. إنها، كما ذكرت، تمتلك قوة سحرية، فميدوزا تحول كل ما يقع عليه بصرها إلى جماد.

وقد صبغت المسيحية الأساطير القديمة بصبغتها، ولونتها بلونها فـ(فينوس) أفسدت الأخلاق المسيحية، إذ أنها كانت تغوي المسيحي ليبتعد عن صلاته وعباداته.

والغاوية اللعوب، في عصر النهضة، صرفت الفارس عن هدفه، لأنه وقع أسير جمالها الحسي، فجمالها رسول للفساد، وهي تمتلك صفات جنسية غير عادية. أحيانا تحاصر الضحية وتمتص قوته، وأحيانا تمتلك قوة تنوم ضحيتها تنويما مغناطيسيا.

وقد عرفت هذه المرأة في الملاحم القديمة، مثل ملحمة (جلجامش)، فجلجامش يطلب من الصياد اصطحاب إحدى بغايا الهيكل إلى مورد الماء حيث يجيء (انكيدو) ليشرب مع الحيوانات الضارية، وذلك لتمارس عليه البغي فنون إغرائها. وحين يصل تعرض عليه مفاتنها فتأخذه رغبة امتلاكها، وبعد سبعة أيام من المباهج الجسدية يصحو (أنكيدو) من نشوته، وتقوده إلى (أريخ) حيث ينتظره (جيلجاميش).. الخ.

وفي العهد القديم تغوي حواء آدم، يساعدها الشيطان الذي يكون على هيأة أفعى. وهناك أيضا قصص مشابهة، فدليلة تغوي شمشون، وزليخة (بوطيفار) تغوي سيدنا يوسف... الخ.

استير:

في العهد القديم يطرد (احشيروش) زوجته لغرورها، ويختار من بين جميلات فارس اليهودية الحسناء (استير) زوجة له. وتخفي هذه، بناء على نصيحة وصيها (مردخاي)، أصلها. وحين أراد الوزير (هامان) إعدام اليهود، تنقذ (استير) و(مردخاي) شعبهما. وهكذا اعتبر الإنقاذ مدهشا، وبدا الاثنان كأنها مرسلان من الله.

ستغدو (استير) في دراما ق١٦ شخصية لافتة في النصوص الأدبية، وستبرز في مسرح العرائس في إسبانيا كقديسة، وسيبرز (مردخاي) كنبي، و(احشيروش) كعاشق، و(هامان) كرمز للطموح السياسي الذي يسقط صاحبه.

في بعض النصوص الأدبية بدت (استير) مساهمة يهودية لتكامل العالم، فالشعب اليهودي يملك الحق، لكنه لا يملك القوة.

يهودية طوليدو: فرموزا

في "يهودية طوليدو" "قصة حب بين (الفونسو) واليهودية الجميلة (فرموزا)، وهذه القصة يمكن أن تكون حقيقية. انضم (الفونسو) سبع سنوات إلى (فرموزا) ونسي النساء والثروة والواجبات كلها، وسيقتل الغرناطيون، فيما بعد، هذه المرأة من شرفة غرفتها.

شهدت القصة قدرا من التغيرات والتنويعات اللازمة التي تمحورت حول البطل الذي يقع في غواية امرأة، فينسى واجباته مدة من الوقت. تسحره المرأة لفترة، ثم يعود إلى رشده بعد قتلها، إذ يرسل الله له ملاكا يبلغه غضب الله منه بسبب المعصية التي ارتكبها، وفي هذه اللحظة يبدي الملك فطنة، فيشارك في الحروب الصليبية تكفيرا عن نسيان واجباته بسبب الغواية.

والتحول المهم في صياغة هذه المادة بدا في العام ١٦١٦: تلحظ قرينةُ الملك اليهوديةَ (راحيل) في الحمام، فتنادي الغرناطيين لإزالة الشر. ويلتقي الملك والملكة في الكنيسة. وتستغل اللعوب (راحيل) مركز القوة التي ربحتها لمصلحتها ولمصلحة قومها، وتحاول العمل على إبطال إبعاد اليهود وترحيلهم من (طوليدو).

المرأة اليهودية في الأدب العالمي الحديث:

"إذا ما غض المرء النظر عن أدب المرأة اليهودية، ووصف الحياة المعبر لليهوديات، فإن ما يتبلور هو صفة مميزة في وصف المرأة اليهودية. تندفع هذه، كما تصورها النصوص الأدبية، في مغامرة الاندماج، ويثير موقفها هذا الإعجاب، ويوقظ قدرها التعاطف معها. تبدو المـــرأة اليهودية ذات جمال مدهش، وامرأة مليئة بالحب، تضحي بنفسها من أجل الآخرين. إنها امرأة تعشق وتتبع في عشقها صوت قلبها، وهي تتخلى عن المعتقدات القديمة وعن شـــعبها، لتجـــد الإنسان فيها، في النهاية.

فكيف بدت المرأة اليهودية في نماذج من الأدب الفلسطيني؟!

المرأة اليهودية محبوبة في نماذج من الأدب الفلسطيني

أولا: الأدب الفلسطيني حتى العام ١٩٤٨

هل يمكن الحديث عن علاقة حب بين العرب واليهود في النصوص الأدبية الفلسطينية التي صدرت حتى العام ١٩٤٨؟

فيم أذكر فإن الأدباء الذين كتبوا عن علاقة بين عرب ويهوديات، في نصوص ما قبل العام ١٩٤٨، هم: خليل بيدس في روايته "الوارث" (١٩٢٠)، ومحمد عزة دروزة في نصه المسرحي "الملاك والسمسار" (١٩٣٥)، وبرهان الدين العبوشي في مسرحيته "وطن الشهيد" (١٩٤٦)، ونجاتي صدقي في قصتيه: "أيام من العمر" و"العابث".

كتب بيدس روايته، وكان زمنها الروائي ما بين ١٩١٤ و١٩١٨، وكانت أحداثها تجري في مصر، وهي تتحدث عن علاقة حب من طرف عزيز لممثلة وراقصته يهودية هي (استير)، حيث يجري هذا الشاب الشامي الثري وراءها، هي التي لا تلتفت إليه قدر التفاتها إلى أمواله، عدا أنها تقيم علاقة مع آخرين غيره.

والسؤال الذي يثار هو: هل يمكن الحديث عن علاقة حب في الرواية بين مسيحي عربي ويهودية عربية أيضا؟

حسين أبو النجا في كتابه "اليهودي في الرواية الفلسطينية" (٢٠٠٢) تناول المرأة اليهودية في الوارث، وأدرجها تحت عنوان "الغانية". إنها ليست المرأة التي تحب لأجل الحب، بل تحب لأجل المال فقط، ولا تكترث للشخص الذي تقيم معه علاقة، حين يقع في ورطة أو ضائقة.

تقترب (استير) في "الوارث" من نموذج الغاوية اللعوب، ولا تقارب نموذج (استير) في العهد القديم أو نموذج (فرموزا) في يهودية طوليدو، ولا تكون مثل المرأة اليهودية التي تتبع قلبها فتحب وتعطي من تحب، غير آبهة لتسخير جسدها لخدمة أهداف سياسية.

يختلف نموذج المرأة اليهودية في "الملاك والسمسار" و"وطن الشهيد" عن (استير) في الوارث. ومع أن النص الأصلي لـ"الملاك والسمسار" غير متوفر، ويعتمد الدارسون على الفكرة التي دارت حولها المسرحية، كما قدمها مؤلفها لبعض محاوريه، إلا أن الدارس يلحظ أن اليهودية فيها مسخرة من أطراف يهودية لتأدية دور من أجل خدمة مصالح شعبها اليهودي في

الحصول على الأرض الفلسطينية، حتى لو ضحت بجسدها وأقامت علاقة جنسية فقــط، دون حب، مع الأقطاعي العربي. إنها هنا تشبه (استير) في العهد القديم في جانب واحد فقط: إنقاذ شعبها. وإذا كان العربي ينظر إليها كعاهرة، وإلى مرسليها كقوادين بلا أخلاق وبلا شــرف، فإن اليهود قد ينظرون إليها كما نظروا إلى (استير) في العهد القديم: كقديسة. تمارس اليهودية هنا دورا من أجل المجموع، ويمارس مرسلوها دور حكيمهم (مردخاي).

ولا يختلف الأمر في مسرحية العبوشي: "وطن الشهيد". في المسرحية تظهر فتاتان يهوديتان لعوبان تصادقان الشباب العرب، وتعملان على إفسادهم والحصول على أمــوالهم، وتحثــانهم على بيع أرضهم للوكالة اليهودية.

ثمة قصتان قصيرتان كتبهما نجاتي صدقي تناول فيهما امرأة يهودية هما "أيام مــن العمــر" و"العابث".

قد يختلف نجاتي صدقي عن بيدس والعبوشي، فإذا كان الأول ذا ثقافة مسيحية وقــرأ الأدب الأوروبي المعادي لليهودية وتأثر به، وإذا كان الآخران ذوي ثقافة إسلامية عاشا فــي فتــرة أخذت الصهيونية، مستغلة الدين اليهودي، تهدد أرض وطنهما، واختارا تبعا لــذلك الجانــب الأسود من النظرة الإسلامية لليهودية واليهود، ولم يختارا الفترة التي كانت العلاقات فيها بين اليهود والمسلمين مشرقة، كما في إسبانيا غالبا، فإن نجاتي صدقي الذي ولد في مدينة تعايشت فيها الأديان، ودرس في موسكو، وآمن بالفكر الاشتراكي، وكان أول أمــين عــام للحــزب الشيوعي الفلسطيني الذي ضم يهودا، فإنه لم ينظر إلى اليهود نظرة واحدة، غير قابلة للتغيــر في الزمان والمكان.

لم يكن نجاتي صدقي يكتب وفق رؤية مسبقة أصلا، رغم كونه ماركسيا، ولم تكــن الثقافــة الدينية لتصبغ رؤيته للآخر وتؤثر فيها. لقد تعامل مع نماذج بشرية، رغم أنه ضــد الحركــة الصهيونية، وهكذا عكست قصصه صورا مختلفة لليهودي.

في قصة "أيام من العمر" هناك علاقة بين ماجد العربي كاتب العرائض، وبين ريتا الأوروبية التي تقيم في فلسطين.

لم يحب ماجد النساء، ولم يرغب في الزواج، ولكن ريتا التي كان زوجها في الجبهة، يحارب مع الإنجليز، تشكو إليه أوضاعها وتقيم علاقة معه. علاقة جنسية قائمة على المصلحة، ينفق

هو عليها، وتمنحه هي جسدها، وتستمر العلاقة وتتواصل دون مشاكل حتى يعود زوجها من الجبهة، فيقيم الثلاثة معا، ولا يسود الخصام بينهم إلا حين تخص ريتا زوجها بالطعام أكثر مما تخص ماجدا، مع أنه هو الذي ينفق على البيت. هنا يشكو زوجها ماجدا إلى الشرطة، وتطرده هذه من المنزل الذي يغدو لريتا وزوجها، ويكون ماجد حمارا كبيرا.

ريتا هنا لا تحب. إنها تروي ظمأ جسدها، وهي بلا حس أخلاقي. وإذا ما أخذنا بالبعد الرمزي للقصة، وفسرنا البيت على أنه فلسطين، فإن انحيازها هو انحياز للحركة الصهيونية ولصالح وطنها وشعبها، وهكذا لا تختلف كثيرا عن الفتيات اللعوبات في "الملاك والسمسار" و"وطن الشهيد".

في قصته الثانية "العابث" لا نكون أمام قصة حب بين فلسطيني ويهودية، قدر ما نحن أمام فلسطينيين عابثين يتوقان إلى ممارسة الجنس، ويشتهيان الجسد اليهودي. الفلسطيني ابن مدينة يافا يتسلل إلى تل أبيب، ويتعرف إلى يهودية قادمة من روسيا، لا تمانع في صداقة عربي هي المتزوجة، صداقة قصدها التعرف إلى العرب فهم جيران. ولم تكن تطمح إلى أكثر من ذلك، خلافا لليافاوي وصديقه الريفي، فهذان يرغبان في علاقة جنسية ليس أكثر. واليهودية الروسية هنا تختلف عن النماذج اليهودية السابقة كلها. ليست امرأة لعوبا، ولا هي موظفة من الوكالة اليهودية لخدمة أهدافها في إسقاط العرب من أجل بيع أراضيهم. والحب- إن كان الجنس وحده حبا-ليس من طرفها هي.

ثانيا: ما بين ١٩٤٨ و١٩٦٧: ناصر الدين النشاشيبي

يلحظ من يتتبع الأدب الفلسطيني الذي كتب ما بين ١٩٤٨ و١٩٦٧ في المناطق التي احتلتها إسرائيل، وشكلت منها دولتها، وهي المناطق التي ميزتها هي عن بقية فلسطين بنعتها مناطق الخط الأخضر، لأن الحركة الصهيونية تزرع وتحول المستنقعات إلى أراض خضر مورقة، عكس العرب، من وجهة نظر صهيونية، حيث يحولون الخضار إلى جفاف وصحراء، يلحظ من يتتبع النصوص الأدبية التي كتبها هؤلاء أنها تكاد تخلو من رسم علاقة حب بين يهودية وفلسطيني، فالروايات قليلة، بل وتكاد تكون معدومة، وكذلك القصص القصيرة، والشعر أتى

على العلاقة بين الشعبين، وكانت متوترة، بشكل عام. ولم أقرأ، في حدود ما أطلعت عليه من قصص وروايات وأشعار، نصا يصور علاقة حب بين عربي ويهودية.

هل يختلف الأمر في النصوص التي كتبها أدباء المنفى، شعرا ونثرا؟ يمكن القول أيضا أن القصص والروايات كانت قليلة ولم تأت على علاقة مثل هذه، فلا سميرة عزام ولا غسان كنفاني، ولا جبرا إبراهيم جبرا، أبرز كتاب المنفى في الخمسينات والستينيات، عكسوا علاقة حب بين يهودية وفلسطيني، ولا كتاب الأفق الجديد أيضا. وأما الشعراء فقد صوروا اليهود على أنهم قتلة ومجرمون وسفاحون. وكان الشعراء، ومثلهم القصاصون والروائيون، يعبرون عن واقع الشعب الفلسطيني بعد النكبة عام ١٩٤٨، وهو واقع اللجوء والشتات والنفي وفقدان الوطن. لقد غدا الفلسطينيون بعيدين عن فلسطين التي أقام فيها اليهود، ولم تعد هناك صلة بين هؤلاء، وهؤلاء، ورأى الفلسطينيون في اليهود أعداء مسؤولين عن نكبتهم، فهل لعلاقة حب أن تزدهر، هذا إذا كان ثمة يهود بين اللاجئين؟

الكاتب الوحيد في هذه الفترة الذي صور علاقة حب بين يهودية وفلسطيني هو ناصر الدين النشاشيبي. وكان هذا، في هذه الأثناء يقيم في القاهرة، ويعمل في صحفها، وحين كتب لم يكتب عن يهودية مصرية وفلسطيني لاجئ يقيم هناك، وإنما كتب عن أحداث جرت في زمن سابق، يعود إلى ما قبل العام ١٩٤٨، أحداث جرت أيضا في مكان مغاير للمكان الذي يقيم فيه وهو يكتب، وإن ترك الزمان والمكان تأثيرهما عليه- أعني أن إقامته في مصر الناصرية صبغت خطابه الروائي، حيث تأثر بتوجه مصر الناصرية وخطابها ورؤيتها للصراع العربي الإسرائيلي.

أصدر النشاشيبي في فترة الستينات، وهو مقيم في مصر، نصين روائيين هما "حبات البرتقال" (١٩٦٢) و"حفنة رمال" (١٩٦٤). ولا تعنينا هنا قيمتهما الروائية قدر ما يعنينا تصوير اليهودية فيهما محبوبة.

تجري أحداث "حبات البرتقال" في ألمانيا وفلسطين، في الحرب العالمية الثانية وبعد انتهائها، وقد كتبها الكاتب ليرد فيها على فيلم (بن هور) حيث يصور اليهودية الصهيونية بطلة تتغنى بأمجاد بلدها وشعبها وصهيونيتها.

يختار النشاشيبي لروايته هذه فلسطينيا مسيحيا يقيم في ألمانيا إبان الحكم النازي، ولا يكون نازيا، فهو ضدها ولهذا يقاومها، ويدفع ثمنا لذلك، حيث يعتقل، ويوضع مع اليهود في معتقلات نازية. وحين تنتهي الحرب، ويفرج عنه، يظل مقيما في ألمانيا، ويظل على علاقات ودية مع اليهوديات اللاتي تحاول الحركة الصهيونية إرسالهن إلى فلسطين، فيرفضن. وحين تبحث الحركة الصهيونية عن الأسباب تعرف أن الفتيات على علاقة بسابا الفلسطيني، فتعمل على إبعاده إلى فلسطين وتلصق به تهمة اللاسامية ومعاداة اليهود. وتعلم مريم اليهودية بما فعلته الحركة الصهيونية مع حبيبها، فتعمل على اللحاق به والسفر إلى فلسطين لملاقاته هناك.

اللافت في الرواية أن مريم تحب الفلسطيني وتفضح الحركة الصهيونية وتقف ضدها، لما رأته من ممارساتها، حيث تحاول الحركة استغلال الفتيات اليهوديات لخدمة الحركة الصهيونية، وهذا ما ترفضه مريم بإصرار.

اليهودية هنا تتبع قلبها، وترفض أن توظف جسدها لخدمة الحركة الصهيونية التي ترى أنها مسؤولة عن الشعب اليهودي كله، بل أن مريم تخاطب الحركة الصهيونية وأفرادها في ألمانيا قائلة:

"انتم لستم أهلي.. الأهل لا يبعثون ببناتهم لمعاشرة الرجال في الفنادق.. الأهل لا يعرضون أعراض بناتهم للبيع.. أنتم مجرمون".

هذه الصورة التي يقدمها النشاشيبي للمرأة اليهودية تبدو مختلفة اختلافا كليا عن تلك التي أبرزها لها الأدباء الفلسطينيون قبل العام ١٩٤٨، ولكنها تتطابق، إلى حد ما، مع الصورة التي أبرزها بعض الأدباء العالميين لليهوديات في العصر الحديث.

في كتابهما "أفكار ولازمات في الأدب" (١٩٨٧) يذهب كل من (هورست) و(انجريد) ديميرش إلى أن المرأة اليهودية في العصر الحديث، كما صورتها النصوص الأدبية، تندفع في مغامرة الاندماج، ويثير موقفها هذا الإعجاب، ويوقظ قدرها التعاطف معها. إنها تسحر القارئ الذي ينظر إليها على أنها نموذج معارض، نموذج يحمل سلوكا. وتبدو المرأة اليهودية ذات جمال مدهش، وامرأة مليئة بالحب تضحي بنفسها من أجل الآخرين، امرأة تعشق وتتبع في عشقها صوت قلبها، وهي تتخلى عن المعتقدات القديمة وعن شعبها، لتبحث في النهاية عن الإنسان

فيها. وهذا ما يتطابق وما كتبه النشاشيبي عن مريم التي أحبت سابا واتبعت صـــوت قلبهـــا، باحثة عن الإنسان فيها، فهل كان النشاشيبي على إطلاع على صورة المـــرأة اليهوديـــة فـــي الأدب العالمي الحديث، ليرسم لها هذه الصورة؟ أم أنه أراد، من خلال إبراز هـــذه الصـــورة للمرأة اليهودية، أن يعزز فكرة شاعت في الخطاب العربي، في الخمسينات والستينيات، وهي أن العرب ليسوا ضد اليهود، وإنما هم ضد الحركة الصهيونية.

هنا يمكن التوقف أمام الرواية الثانية للنشاشيبي وهي "حفنة رمال"

كتب النشاشيبي روايته هذه لتصور جانبا من المأساة، حتى يجري إنتاجها، في حينه، لحساب الشركة المصرية للإنتاج السينمائي العالمي في القاهرة. وغلب على الرواية الطابع الـــدعائي، وبرزت فيها روح الانفعال بوضوح. وتتمحور الرواية حول هناء الغزاوي الفلسطينية التـــي كانت تعيش في قرية النعاني بالقرب من الرملة، وقد حكم عليها بالسجن المؤبد لأنهـــا قتلـــت يهودا ثأرا لابنها ثابت الذي صرعه سكان مستوطنة (هاديف) القريبة من القرية، وذلك لرفضه بيع أرضه لهم.

الفتاة اليهودية التي لها علاقة بالشاب الفلسطيني ثابت هي سارة، وهذه فتاة لأب عربـــي وأم يهودية أحب أبوها أمها وتزوجا يوم كان يسكن في الحي نفسه الذي كانت تقطن فيـــه، علـــى الرغم من معارضة أهلها لهذا الزواج. مات والد سارة بعد سنوات قليلة من ولادتها، فانتقلـــت مع أمها وأهل أمها إلى حيفا، وذلك لأن أهل أبيها رفضوا الاعتراف بها. وقد ألحقها خالهـــا، لأنها تجيد العربية، بوظيفة لدى دائرة (الكيرن كيميت)، وهناك تستغلها الحركـــة الصـــهيونية وترسلها مع ثلاثة مستوطنين لإقناع ثابت ببيع أرضه لليهود.

تتعاطف سارة مع ثابت لأن الدم العربي يجري في عروقها، وتجازف بحياتها من أجل إنقاذه والحيلولة دون قتله، ويدفع هذا اليهود إلى تلفيق تهمة له، وعلى ذلك تبدي سارة تعاطفها معه، وتعرب عن تأييدها له وتظهر حبها له.

يعزف النشاشيبي هنا على وتر الدم في تعزيز العلاقة بين سارة وثابت، فكما أحـــب أبوهـــا المسلم العربي أمها اليهودية، على الرغم من معارضة الأهل، تحب هي ثابتا، على الرغم من أنه متزوج، لرابطة الدم؟ ويفعل هو الشيء نفسه، تخاطب سارة ثابتا قائلة: " أرجو أن تسمعني

جيدا.. وان تثق بصحة كل كلمة أقولها لك.. أن الدم الذي يجري في عروقك هو نفس الدم الذي يجري في عروقي.." (ص٥١)

وهو الذي يعلم أنها مرغمة على ممارسة دور لا يرتضيه لها يُصِرّ على إنقاذها، ويرى فيها أسيرة، وتصبح رمزا للوطن، ويغلي في عروقه الدم العربي الذي يطلب منه إنقاذها. وثابت متأكد من أنها بقيت عربية، وأن هواها عربي وشعورها عربي ووطنيتها عربية (ص٦٨).

ثمة علاقة حب سببها رابطة الدم، وهي متبادلة، وتؤثر سارة ثابتا على الوكالة اليهودية، وتفصح له عن أهداف الوكالة.

لا تختلف سارة هنا عن مريم في "حبات البرتقال". إنها تنحاز لثابت كما انحازت تلك لسابا، ومن هنا نجدها تصرخ في وجه رجال الوكالة اليهودية قائلة:

"بل إنكم تتآمرون عليه.. إنكم تريدون قتله.. هذه هي خطتكم.. إنكم مجرمون... ألم يقر قراركم على قتله.."

و"سأترككم يا مجرمين.. وسأهرب هذه الليلة إلى حيفا... وسأعود إلى أهلي وأمي.. لن أمكنكم مني.."

و"احذر هؤلاء الناس يا ثابت.. احذرهم.. احذرهم.. إنهم يريدون قتلك.. صدقني.. أنا لا أكذب عليك.. لا تشك في إخلاصي لك.." (ص٧١).

وتنتهي علاقة الحب، بقتل مستوطن لثابت، وتشويه سمعته، ذاهبا إلى أن سارة هي التي قتلته حين أراد الاعتداء على شرفها. الحب لا يدوم ولا يستمر، وهناك من يفسده، وهو الوكالة اليهودية والحركة الصهيونية.

ما الصورة الجسمانية التي أبرزها النشاشيبي للمرأة اليهودية في روايتيه؟ كيف بدت المرأة اليهودية شكلا؟ وهل تختلف عما سيقوله محمود درويش لاحقا: والذي يعرف ريتا ينحني ويصلي لإله في العيون العسلية؟

المرأة اليهودية هنا جذابة، على قدر كبير من الجمال، وهي شهوانية جنسية، توقع من يراها في أسره. كأنها لا تختلف عن استير التي أسرت لب الملك (احشيروش)، وكأنها لا تختلف

أيضا عن (فرموزا) في يهودية طوليدو وإن كانت مريم وسارة لا تقومان بما قامت به فرموزا- أي لم تصرفا سابا وثابتا عن واجباتهما الوطنية والإنسانية.

يصف السارد ما رآه ثابت في سارة قائلا: "ونظر ثابت إلى الفتاة قليلا، فرآها تحدق في وجهه بعينين مليئتين بالسحر والجاذبية".

وأما في "حبات البرتقال" فيصف السارد مريم بالتالي: "ونظر الضابط إلى وجه مريم.. وإلى صدرها.. وإلى شعرها.. وإلى نظرتها المملوءة بالشهوة والجنس".

ثالثا: ما بعد ١٩٦٧: محمود درويش نموذجا

كثرت الكتابة عن المرأة اليهودية في الأدب الفلسطيني، بعد العام ١٩٦٧، في الشعر وفي القصة وفي الرواية، وفيما أعرف فقد عالجها الدارسون في الشعر وفي الرواية، ونادرا ما أبرزوا صورتها في القصة القصيرة. أشير ثانية إلى كتاب حسين أبو النجا "اليهودي في الرواية الفلسطينية" (٢٠٠٢) الذي حلل فيه نماذج روائية متعددة، وأشير إلى دراسات أخرى تناولت المرأة اليهودية المحبوبة في أشعار محمود درويش أبرزها دراسة عبد الله الشحام باللغة الإنجليزية، ودراسة بسام قطوس عن شتاء ريتا الطويل".. وكنت أنا أفردت فصلا خاصا من كتابي "أدب المقاومة... من تفاؤل البدايات إلى خيبة النهايات" (١٩٩٨) لصورة اليهودي في أشعار درويش.

وربما يتساءل سائل: لماذا درويش دون غيره؟ ولماذا الاقتصار على الشعر هنا دون الرواية؟

حين كتب درويش قصائده التي أتى فيها على المرأة اليهودية محبوبة كان يقيم في الأرض المحتلة، وحين أعاد الكتابة عنها في العام ١٩٩٣ "شتاء ريتا الطويل" أعاد كتابة التجربة السابقة. كأن الفارق في الكتابة بين "ريتا والبندقية" و"شتاء ريتا الطويل" يعود فقط إلى الفارق في النظر إلى التجربة. كيف تنظر إلى تجربة تعيشها وتكتب عنها في اللحظة نفسها، وكيف تنظر إلى تلك التجربة بعد مرور عشرين عاما عليها. وعلينا ألا ننسى هنا أيضا الاختلاف في التعبير والحس الجمالي أيضا، فالشاعر لم يتغير إنسانيا وحسب، هذا إن تغير، إنما تغير جماليا، ولا شك في ذلك، فيما يخص محمود درويش الذي يقر نقاد كثيرون على أنه طور نفسه جماليا بطريقة مدهشة.

وحين كتب درويش عن المرأة اليهودية محبوبة كتب عن تجربة معيشة، خلافا لكتاب كثيرين، ذكورا وإناثا، مثل أفنان القاسم في "المسار" و"محمود شاهين" في "الهجرة إلى الجحيم" وأيضا مثل النشاشيبي في روايتيه. وما من شك في أن الكتابة عن تجربة معيشة في الحب لها مذاق خاص. قد أكون على صواب، وقد أكون على خطأ، ولكني أرى أن الدفء في قصائد الغزل، وربما الصدق، بل، في النصوص النثرية، لا يكون قائما إلا في تلك الكتابات التي عبر فيها أصحابها عن مشاعرهم وآمالهم وآلامهم وعذابهم. من هنا، فيما أرى، تستحق الكتابة عن درويش، حين يكتب كاتب عن المرأة اليهودية محبوبة في الأدب الفلسطيني. لم يتخيل حبا، ولم يتصور مشاعر، ولم يكتب عن تجربة الآخر، لقد كتب عن حبه، وصور مشاعره، وكتب عن تجربته هو.

كتب درويش ثلاث قصائد مهمة ومميزة، في هذا الجانب، الذي أتى عليه أيضا في المقابلات التي أجريت معه، فأوضح لمن طلب معرفة قصة علاقته بريتا، ما يحيط بتلك العلاقة. والقصائد الثلاثة هي: ريتا والبندقية، والكتابة على ضوء بندقية، وشتاء ريتا الطويل.

يرى درويش أن مواقف أهل الفتيات اليهوديات من إقامة ابنتهم علاقة مع عربي تختلف باختلاف مصادرهم وتربيتهم الايديولوجية، ويقول أنه أحب مرة فتاة لأب بولندي وأم روسية. قبلته الأم ورفضه الأب. لم يكن الرفض لمجرد كونه عربيا، فذلك الحين لم يشعر كثيرا بالعنصرية والكره الغريزي، لكن حرب ١٩٦٧ غيرت الأمور. دخلت الحرب بين الجسدين بالمعنى المجازي، وأيقظت حساسية بين الطرفين لم تكن واعية من قبل. يقول درويش أيضا: "تصور أن صديقتك جندية تعتقل بنات شعبك في نابلس مثلا، أو حتى في القدس. ذلك لن يثقل فقط على القلب. ولكن على الوعي أيضا. حرب ٦٧ خلقت قطيعة عاطفية في علاقات الشباب العرب والفتيات اليهوديات.

الفرنسية (لور أدلير) تطمح في معرفة المزيد عن ريتا، فتسأل الشاعر عنها، وهنا يقول: "تركيب لغوي لأكثر من تجربة" و"إنه لا يعرف امرأة بهذا الاسم لأنه اسم فني، ولكنه ليس خاليا من ملامح إنسانية محددة".

وعندما تلح (لور) في السؤال لمعرفة ما إذا كانت قصته مع ريتا وقعت بالفعل يجيب درويش:

"إذا كان يريحك أن أعترف بأن هذه المرأة موجودة، فهي موجودة أو كانت موجـــودة. تلـــك كانت قصة حقيقية محفورة عميقا في جسدي. في الغرفة كنا متحررين من الأســـماء، ومـــن الهويات القومية ومن الفوارق، ولكن تحت الشرفة هناك حرب بين الشعبين".

ريتا محمود درويش جميلة، بل جميلة جدا، فالذي يعرفها ينحني ويصلي لإلـــه فـــي العيـــون العسلية، ولكن ما بينه وبين العيون هذه هو البندقية– أي الحرب بين الشعبين.

وحين يعيد درويش كتابة قصته مع ريتا، بعد عشرين عاما أو أكثر، وتحديـــدا فـــي مرحلـــة (مدريد) (١٩٩١)، لا ينهي القصيدة باللقاء بينه وبينها، وهذا هو الأمر المدهش. فهي تمضي إلى المجهول حافية، فيما يدركه الرحيل، ويظل الحلمان متقاطعين، يحمل أحدهما الوصـــايا، ويودع صاحب الثاني الناي الوصايا.

وربما قال قائل: إن درويش هنا يكتب التجربة كما كانت في الماضي، فهو يسترجعه، وربمـــا لا يكون، بعد ١٩٩١، التقى بريتا، وهكذا فإن القصيدة التي كتبت في ١٩٩١ تسترجع زمنـــا آخر وتكتب ما حدث فيه دون تأثير للزمن الكتابي، ربما.

القصيدة الثانية اللافتة لدرويش هي قصيدة "الكتابة على ضوء بندقية" (١٩٧٠/ ١٩٧١). فيها تبحث (شولميت) التي تحب الجندي الإسرائيلي (سيمون) عن عالم آخر غير عـــالم الحـــرب، فسيمون يذهب إلى الجبهة، ولا يجيد الحديث إلا عن الحرب والسلاح، وهي ترغب في حياة عادية، وحين تتعرف إلى محمود يخاف (سيمون) عليها من أن يفسد محمود أفكارهـــا. هنـــا تقول (شولميت): كل قومياتنا قشرة موز، وتحاول أن تتحرر من الحب القـــديم، مـــن حـــب سيمون. و(شولميت) هنا تريد أن تتبع هوى قلبها، لا الأفكار التي ربتها الصـــهيونية عليهـــا. وحين تشعر بالضجر والوحدة وتبحث عن محمود الذي أوقعها أيضا بخجله ومنطقه يكون هو الآخر في السجن، ولا تلمع آخر الليل إلا بندقية.

هنا يمكن التوقف أمام قصة قصيرة هي "الغلطة" لعبد الله عيشان. يسرد القاص قصة حب بين شاب عربي وفتاة يهودية، حب كلل بالزواج ثم انتهى بالانفصال لأنه كان مبنيا علـــى أســـس خاطئة. إنها غلطة ارتكبها الطرفان اللذان لم يتساءلا إن قدر لهذا الزواج أن يـــنجح بســـبب اختلاف الواقع الاجتماعي لكليهما.

لا ترى شولميت التي تعرفت إلى إبراهيم في الكيبوتس وأحبته لأنه أنقذها من شخص لاحقها وحاول الاعتداء عليها، لا ترى مانعا من الذهاب معه إلى الشاطئ، كما لا ترى مانعا من الزواج منه، ويقيمان معا في قريته، وهناك تبدأ المشاكل ويخيب أمل كل منهما.

"فشولميت ابنة الكيبوتس لم تكن لتستطيع أن توفق بين نظم القرية وحياتها، فكانت تخرج من البيت تتجول بين الكروم وتصعد الجبل القريب لتمتع نفسها بالمناظر الجميلة، الأمر الذي أنكره والداه، وأثار القيل والقال في قريتهم.

الفتاة اليهودية متحررة، ومجتمع إبراهيم محافظ. شولميت ترعرعت في بيت يدلعها ويرعاها، وكانت تحظى بقسط وافر من الحرية حيث تسمح لها تقاليدها فعل ما تشاء، خلافا لإبراهيم الذي يتدخل والداه في شؤونه. ونظرا لتحررها فقد أخذت تشعر بأنها منبوذة بين أهله الذين كانوا يسمعونها الكلام اللاذع، وكذلك جيران أهله.

ثمة سبب آخر لعدم نجاح هذا الحب يكمن في النمط المعيشي لكليهما، مثل اختلاف الطعام والأذواق. كانت شولميت تحب سماع الموسيقى الغربية، وكان هو يطرب لسماع العتابا والميجنا، وأخذ كل منهما يسخر من ذوق الآخر، ما أجج الخلاف. وفوق هذا كله فإن مجتمع القرية كان ينظر إليها على أنها يهودية، ويصل الخلاف إلى ذروة أعلى بسبب الأحداث السياسية التي شهدتها فلسطين بين العرب واليهود: "لم تكن في الماضي تهتم بالدين والانتماء. لم يكن لهذه الأمور شأن ولا أهمية لديها. بل لم تفطن إليها مطلقا. ولكن الرياح التي هدمت واجتاحت البلاد كانت عاتية، حطمت النوافذ وكشفت الغطاء عن أشياء غامضة مجهولة."

هل أخطأ درويش حين قال: بين ريتا وعيوني بندقية؟

رابعا: نصوص مرحلة السلام: حرب ويخلف نموذجا

ربما يجدر التوقف أمام النصوص التي أنجزت في مرحلة السلام، ذلك أن الحرب التي ابتدأت منذ وعد بلفور واتخذت أشكالا عديدة، وظلت تشتعل وتخبو، ولدت حالة من الكراهيـــة بـــين الشعبين، فثمة شعب أنجز ما يريد وأقام دولته، وثمة شعب تحول إلى لاجئين وفقد أرضه وما زال يعاني. وكان من المفترض، حين وقعت اتفاقية سلام بين قيادتي الشعبين، أن يحل الوئام والسلام، هذا لو كان السلام حقيقيا.

بعد (أوسلو) ١٩٩٤، أنجزت نصوص أدبية عديدة، أنجزها أدباء مقيمون، مثل الروائي أحمد حرب، وأدباء عائدون كانوا يقيمون، منذ ولادتهم، في المنفى، مثل الروائي يحيى يخلف. وأتى هذان، فيما كتبا، على تصوير نماذج نسوية وذكورية يهودية. وما يهمنا هنـــا هـــو النمـــاذج النسوية التي كان بينها وبين فلسطينيين علاقة حب.

في روايته "الجانب الآخر لأرض المعاد" (١٩٩٠)، وهي رواية، كما نلاحظ، صدرت في أوج الانتفاضة الأولى، يبرز المؤلف نموذجا نسويا يهوديا هو (ارنونا)، وتقيم هذه علاقة حب مع فلسطيني من أنصار الحوار والتعايش، هو هادي، وتكلل قصة الحب بالزواج، ابتداء، ثم تنتهي بالطلاق، في الجزء الثالث من رواية "بقايا" (١٩٩٦) التي صدرت، كما نلاحظ، في مرحلـــة السلام. وهذه مفارقة.

(أرنونا) فتاة يهودية انحدر أصلها من اليمن، فأهلها يهود عرب يرفضون أن تفرط ابنتهم في شرفها. وحين تلتحق هذه بالجيش الإسرائيلي، يغتصبها ضابط وجنود، فيهددها أهلها بالقتـــل، وهكذا تهرب منهم. تلتقي (أرنونا) بهادي الفلسطيني وتعلن إسلامها ويتزوجان، وتقـــيم فـــي قريته، آملة أن يكون هذا الزواج جسرا بين الشعبين، فقد آلمها منظر الأطفـــال الفلســـطينيين

يقتلون. وتحارب (أرنونا) التي غدا اسمها إيمان من أهلها وبني دينها السابق، وتحارب أيضا من أهل زوجها وأهل قريته، ولكنها تحتمل الحياة القاسية الصعبة، ما دام هادي يحبها ويقف إلى جانبها.

علاقة الحب بين إيمان وهادي لا تستمر، إذ يصيبها العطب، ويكون هادي هو المسؤول، لأنه يحب امرأة ثانية هي سلفيا، ويكون الحب حب مصلحة، ما يسبب الألم لإيمان التي غدا وضعها صعبا، فلا هي مع أهلها، ولا هي مع زوجها وأهله في ود ووئام، ولا تجد من يقف إلى جانبها إلا المثقف وحيد صديق هادي. وتعرض عليه أن يتزوجها حلا لما غدت عليه، ويرفض، لأنه متزوج من ناحية، ولأنه يعبر عن ندمه لزواجه، فهو يريد أن يبقى حرا، والزواج قيد.

الحل الذي يقترحه وحيد على إيمان، هو ما تأخذ به: العودة إلى دينها، فهناك راب يهودي يتقبل عودة اليهوديات اللاتي ارتددن عن دينهن وأسلمن، يتقبل عودتهن إلى الدين اليهودي، وتعود إيمان إلى دينها اليهودي. وتعود إلى اسمها الأول، وتعبر عن أسفها لما أقدمت عليه من قبل، وتندم أشد الندم لزواجها من عربي، فالعرب وحوش، وليس هناك حياة أسوأ من العيش معهم.

ولعل الطريف في الأمر أن الانفصال تم في مرحلة السلام، فـ"بقايا"، كما لاحظنا، صدرت في العام ١٩٩٦، وزمنها الروائي يأتي على (أوسلو) ويذكر السلطة الوطنية الفلسطينية وتأسيسها.

واللافت في القصة أن المسؤول عن النهاية المأساوية لعلاقة الحب هو هادي الفلسطيني، لا إيمان (أرنونا) اليهودية. فهي ضحت من أجله وأخلصت له، وعاشت كما يريد، وحين أغلقت في وجهها الأبواب اضطرت للعودة إلى دينها اليهودي وقالت ما قالت عن العرب، ولو تزوج منها وحيد ووقف إلى جانبها لظلت مقيمة مع العرب، ولما قالت فيهم ما قالت.

وربما احتاجت الكتابة عن علاقة الحب هذه بين (أرنونا) وهادي إلى كتابة مفصلة، لا يتسع المجال لها هنا، بخاصة أن الفلسطيني اليساري التفكير، في لحظات غضبه، يكيل الاتهامات لزوجته التي تخلى عنها، وهي اتهامات لا تتناسب مع تفكيره لو كان مؤمنا به ويمارسه حقيقة. إن موقفه من الشرف لا يختلف كثيرا عن موقف أي إنسان عادي، وهكذا يشتمها ويتهمها بماضيها ويعيرها به.

الكاتب الثاني الذي أتى على علاقة حب بين فلسطيني ويهودية في روايته هو يحيى يخلف. أنجز هذا، بعد عودته أثر اتفاق (أوسلو)، رواية سجل فيها تجربة العودة، هي "نهر يستحم في البحيرة" (١٩٩٧).

ومع أن المرء لا يجد فارقا بين مؤلف الرواية وساردها/ بطلها، حيث الثلاثة في النهاية هم يحيى يخلف، إلا أن قصة الحب مع اليهودية (بيرتا) ليست معه شخصيا. وهي ليست قصة حب ناجمة عن اتفاق (أوسلو) وثمرة لمرحلة السلام. إنها تعود لما قبل العام ١٩٤٨، يوم كان عمر يحيى أربع سنوات فقط.

اليهودية هي (بيرتا)، والفلسطيني هو فارس الفارس. و(بيرتا) راقصة يهودية كانت ترقص في ملهى الليدو، وكانت تعشق فارسا، ابن طبرية، الرياضي، الملاكم، القبضاي، شميم الهوا،

قطاف الورد. وقد فضلته (بيرتا) على أصحاب الملايين، وعاشت معه أجمل لحظات العمر، وكانت حكايتهما نشيد البحيرة، ومعزوفة الأمواج، ورفيف الأجنحة وعطر الليل.

"عندما حدثت نكبة عام ٤٨، واحتل اليهود طبرية، هاجر فارس الفارس إلى مخيم عين الحلوة في لبنان، فلحقت به بيرتا، وعاشت معه في مخيم اللجوء والشتات. قبلت أن تسكن معه في الخيمة التي تهزها الرياح، وشاع الخبر، فجاء رجال المباحث اللبنانيين، وألقوا القبض عليهما. أفرجوا عنه، وأما (بيرتا) فقد سلموها إلى رجال الصليب الأحمر الذين سلموها بدورهم إلى السلطات الإسرائيلية، وهكذا، فقد عادت (بيرتا) إلى طبرية، وبقي فارس الفارس في مخيم عين الحلوة". (ص٧٤)

في طبرية كان فارس يتمشى عند كل أصيل مع حبيبته بيرتا، وكان أهالي طبرية الذين يتصفون بالتسامح وسعة الصدر يتفهمون هذا العشق، بل إن معظمهم كانوا يباركونه. أحبوا بيرتا وأحبتهم، ولذلك لم تطق صبرا عندما طردوا إلى المنافي، فلحقت بهم إلى مخيمات اللجوء والشتات" (ص١١٣)

والطريف أن كلا من فارس و(بيرتا)، بعد أن فرقهما النظام العربي، ظل مخلصا للآخر، فلا هو تزوج بعدها، ولا هي أيضا تزوجت من غيره. النظام العربي، ممثلا في رجال المباحث اللبنانيين، هو المسؤول عما آلت إليه علاقة الحب بين فلسطيني ويهودية.

خامسا: نص انتفاضة الأقصى

ربما راود القارئ، وهو يقرأ العنوان السابق، السؤال التالي: هل يمكن الكتابة، في النصوص التي أنجزت إبان انتفاضة الأقصى الدموية، عن علاقة حب بين فلسطيني ويهودية؟ وربما يكون الحق معه، فالانتفاضة التي انفجرت في ٢٠٠٠/٩/٢٨ شهدت عنفا دمويا لم تشهده الأراضي الفلسطينية منذ العام ١٩٤٨، وقد بلغ العنف مداه، حتى عد بعض المراقبين الانتفاضة حربا.

ومن المؤكد أن النصوص الروائية التي أنجزت وتطابق فيها الزمنان الروائي والكتابي لم تأت على علاقة حب بين طرفين. ولكن هل كانت الروايات كلها التي أنجزت ما بين ٢٠٠٠ و٢٠٠٨ يتطابق فيها الزمنان؟ ألا توجد روايات كان فيها الزمن الروائي مغايرا للزمن الكتابي؟ ثم ألا توجد روايات أيضا كان فيها ارتدادات زمنية لفترة ما قبل ٢٠٠٠/٩/٢٨؟

في الروايات التي أنجزت ما بين ٢٠٠٠ و٢٠٠٨ ما تطابق فيها الزمنان، مثل رواية وليد الهودلي "ستائر العتمة"، وفيها ما لم يلامس أصحابها المرحلة الزمنية المحددة، بل ارتد زمنها الروائي إلى ما قبل ٢٠٠٠/٩/٢٨، جزئيا أو كليا، مثل رواية سحر خليفة: "ربيع حار" ورواية مشهور البطران: "آخر الحصون المنهارة". تعالج رواية سحر اجتياح نابلس في العام ٢٠٠٢، ولكن قسما من الرواية يأتي على فترة زمنية هادئة، فترة (أوسلو) وما تلاه. وأما مشهور البطران فيعالج مرحلة ما قبل الانتفاضة الأولى حتى انفجارها- أي الأشهر الأولى لها وأشهر سبقتها.

في رواية سحر كتابة عن مشروع حب بين فلسطيني ويهودية، لكن هذا المشروع لا يكتمل، وفي رواية أنور حامدة "حجارة الألم"، وهي رواية لم تكتب أصلا بالعربية، وإنما نقلت إليها عن المجرية، ثمة بدايات حب بين مستوطنة يهودية وقروي فلسطيني من عنبتا، لكن هذه البدايات لا تتواصل، ولا تتكلل بالنجاح، فالعداء بين الشعبين وتفجر انتفاضة الأقصى يجلب معه الموت لا الحب. وعلى الرغم من مشاريع الحب هذه، إلا أن المرء لا يستطيع أن يكتب عن علاقة حب بين طرفين: فلسطيني ويهودية.

هنا يمكن التوقف أمام رواية مشهور البطران "آخر الحصون المنهارة". الشخصية المحورية فيها شاب غزي تضطره الظروف إلى ترك دراسته الجامعية، والذهاب إلى العمل في المناطق المحتلة في العام ١٩٤٨، كي يعيل أسرته بعد وفاة والده.

يعمل بشار المحمودي في مزرعة يملكها إسرائيلي، ولا يكون مرغوبا فيه من أكثر أبناء العائلة الإسرائيلية، ولكنه يملك يدين تحولان التراب ذهبا، وهكذا يبدأ بعض أفراد الأسرة يتقبلونه، ويختلف الأمر حين يساعد بشار رب الأسرة وينقذ حياته، حين يتعرض لأزمة قلبية. هنا يزداد تقبل بعض أفراد الأسرة له، ويغدو مطلوبا.

أثر إصابة صاحب المزرعة بالمرض، يغدو غير قادر على إشباع غريزة زوجته الشبقة جنسيا، وهكذا تجد هذه في بشار فحلها الآخر، وتبدأ بينهما علاقة جنسية مشبوبة، لا تروق للبنت حين تكتشف أن أمها تقيم علاقة غرامية مع هذا العربي الذي تكرهه أصلا، علما بأنها تذهب إليه ذات ليلة ليضاجعها كما يضاجع أمها.

بشار المحمودي هنا ليس محبوبا، ولا يمكن الحديث عن علاقة حب بينه وبين زوجة الإسرائيلي وابنته. فلا هو يحبهما ولا هما تحبانه. تماما مثل وجوده في المزرعة. إنه وجود غير مرغوب فيه، لكن أصحاب المزرعة بحاجة إلى أيد عاملة ماهرة. ولو ظل الزوج قادرا على إشباع نهم زوجته لما أقامت علاقة مع بشار. والبنت تحب يهوديا، وتكره بشارا، ولكنها حين تراه مع أمها في السيارة تذهب إلى كوخه ليلا، طالبة منه أن يضاجعها كما ضاجع أمها. أما هو فيريد العمل لإعالة أسرته.

اليهودية هنا تستغل بشاراً، وهو لا يمانع في هذا، لأنه مسؤول عن أسرة وبحاجة إلى العمل. والبنت، على ما يبدو، تغار من أمها، وهكذا تندفع إليه وتسلمه جسدها هي التي كرهت وجوده.

وعلى العموم يمكن القول أن مشاريع الحب في روايات الانتفاضة تنتهي بالإخفاق، والسبب هو حالة الحرب بين الشعبين. ترى هل عبر محمود درويش في أسطره عن الحكاية كلها:

بين ريتا وعيوني

بندقية

والذي يعرف ريتا

ينحني ويصلي

لإله في العيون العسلية.

أهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في إنجاز هذه الورقة:

١ -العربية:

١. الأسطة، عادل: اليهود في الأدب الفلسطيني، القدس، ١٩٩٢.

– الأسطة، عادل: أدب المقاومة من تفاؤل البدايات إلى خيبة النهايات، غزة، ١٩٩٨.

– الأسطة، عادل: سؤال الهوية، عمان ورام الله، ٢٠٠٠.

٢. البطران، مشهور: آخر الحصون المنهارة، رام الله، ٢٠٠٥.

٣. حامد، أنور: حجارة الألم، رام الله، ٢٠٠٥.

٤. حرب، أحمد: الجانب الآخر لأرض المعاد، عكا، ١٩٩٠.

٥. حرب، أحمد: بقايا، رام الله، ١٩٩٦.

٦. خليفة، سحر: ربيع حار، رام الله، ٢٠٠٤.

٧. درويش، محمود: ديوان محمود درويش، دار العودة، ١٩٨٧، ط٧.

٨. النشاشيبي، ناصر الدين: حفنة رمال، القاهرة، ١٩٦٢.

٩. أبو النجا، حسين: اليهودي في الرواية الفلسطينية، الجزائر، ٢٠٠٢.

١٠. يخلف، يحيى: نهر يستحم في البحيرة، عمان ورام الله، ١٩٩٧.

٢ -بالألمانية:

1. Horst.S and Ingrid Daemmrich: Themen und Motive in der Literature, Tubingen, 1987.

2. Frenzel, Elisabeth: Motive der weltletratur, Stuttgart, 1987, auf.7.